



مثلة بالخراب والآلام مرت الذكرى السنوية للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وخمس سنوات على إحراق البوعزizi نفسه رفضاً للإذلال وامتهان الكراهة، وعامان على اختطاف وتغييب المونتين الأربعة، رزان زيتونة وسميرة الخليل ووائل حمادة وناظم حمادي، والمشترك ليس التوقيت فقط وإنما ازيداد جرعة القهر والتمييز والحرمان من الحقوق التي يتجرعها الإنسان العربي.

أجمعـت ثورات الربيع العربي على نصرة حقوق الإنسان وطالبت بالحرية والكرامة والمساواة، لكن قوى الظلام والاستبداد والعنف حولـت الأحلام إلى كوابيسـ، فـتدـهـورـتـ الأمـنـياتـ والمـطالبـ فيـ المشـهدـ السـورـيـ كـمـثـالـ،ـ منـ مـداـهاـ الحـقـوقـيـ المـشـروعـ إلىـ مجـردـ الـبـحـثـ عـنـ الـأـمـنـ وـالـحـفـاظـ عـلـىـ الـحـيـاـةـ،ـ وـبـدـلـ أـنـ تـعـزـزـ مـبـادـئـ حـقـوقـ إـلـاـنـسـانـ وـتـكـرـسـ تـشـريعـياـ وـسـلـوكـاـ وـتـقـافـةـ،ـ أـصـابـتـهاـ اـنـتـكـاسـةـ كـبـيرـةـ عـلـىـ أـكـثـرـ مـنـ مـسـتـوـيـ.

أولاً، صار كل شيء مباحاً ولم تعد للبشر قيمة تذكر مع تفاقم الصراع الدموي وإنفلات أدواته العنيفة، فأطلقت اليـدـ عـشوـائـياـ للـتوـغلـ أـكـثـرـ فـأـكـثـرـ فـيـ القـمعـ وـالـفـتـكـ وـالـتـنـكـيلـ فـيـ مـعـادـلـةـ الدـفـاعـ عـنـ التـسـلـطـ وـالـاـمـتـياـزـاتـ،ـ لـطاـولـ الـاعـتـقـالـاتـ عـشـراتـ الـأـلـوـفـ منـ الـمـوـاطـنـينـ،ـ مضـىـ عـلـىـ غالـبيـتهمـ سـنـوـاتـ عـدـةـ مـنـ دونـ مـحاـكـمةـ أوـ مـعـرـفـةـ لأـمـاـكـنـ سـجـنـهـمـ،ـ مـنـهـمـ مـنـ أـغـاثـ مـحـتـاجـاـًـ أوـ قـدـمـ عـوـنـاـ لـنـازـحـ وـمـنـهـمـ مـنـ أـسـعـفـ جـريـحاـًـ أوـ سـاـهـمـ بـرـصـدـ وـتـوـثـيقـ ماـ يـجـريـ.ـ زـادـ الطـينـ بـلـةـ،ـ غـيـابـ الـمـسـاءـلـةـ وـالـمـحـاسـبـةـ وـانـهـيـارـ الـبـعـدـ الـأـخـلـاقـيـ وـالـفـانـوـنـيـ الرـادـعـ،ـ فـلـمـ يـعـدـ أـهـلـ الـحـكـمـ يـخـشـونـ مـنـ أـيـةـ رـدـودـ أـفـعـالـ دـاخـلـيـةـ أوـ خـارـجـيـةـ فـيـ مـاـ يـتـعـلـقـ باـحـترـامـ حقوقـ إـلـاـنـسـانـ،ـ بـخـاصـةـ أـنـ العنـفـ المـفـرـطـ أـمـاـطـ اللـثـامـ عـنـ الـعـدـيدـ مـنـ الـذـرـائـعـ وـالـحجـجـ التـيـ دـأـبـ النـظـامـ عـلـىـ تـروـيجـهـ لـتـسـوـيـعـ حرـمانـ النـاسـ مـنـ حـقـوقـهـمـ،ـ لـتـظـهـرـ الـمـارـسـاتـ الـقـمـعـيـةـ عـارـيـةـ وـمـدـمـرـةـ لـاـ يـسـترـهـاـ أـيـ غـطـاءـ أـيـديـوـلـوـجـيـ أوـ سـيـاسـيـ،ـ وـلـنـقـفـ فـيـ

المحصلة أمام مجتمع يسير من عنف إلى أشد، في ظل استهتار مшин بحياة الإنسان واستسهال التضحية بمستقبل الأجيال وبكل ما أنتج من ثقافة وبنيان لقاء صالح ضيقه وأنانية.

ثانياً، التردي الذي أصاب حقوق الإنسان في المناطق التي خرجت عن سيطرة النظام وباتت في قبضة منظمات جهادية، ويمكن للمتابع أن يقدر أحوال البشر حين تندفع بعض الجماعات المسلحة لتصفية الحساب عشوائياً مع من تسماهم بقايا النظام، أو تستخدم مختلف ألوان التعذيب والإذلال ضد مواطنين أبرياء بحجة تجاوز نمط الحياة المفروض عليهم، ثم تباها بإعدام بعضهم، ذبحاً وحرقاً وصلباً، ناهيك عن اغتيال الناشطين السياسيين والإعلاميين، ومحاربة أشكال التنظيم المدني والإداري واعتقال المنتخبين في المجالس المحلية وتصفية بعضهم!

ويمكن للمتابع أيضاً أن يتوقع الدرك الذي وصلت إليه حقوق الإنسان هناك، عندما تغدو المرأة عورة وتحرم من حقها في العمل والتنقل والاجتهاد، أو حين يحرم الأطفال من فرصهم في التعليم والرعاية وتفرض عليهم مناهج دينية تدمر قدراتهم على المحاكمة والنقد والاختيار!

ثالثاً، إصرار العقل المعارض على تكريس النهج السلطوي ذاته في موقفه من الكائن البشري، وتوسيع التضحية بالإنسان وحقوقه على مذبح المصلحة السياسية، فحين تغدو مهمة إسقاط النظام مهمة لا تعلوها مهما، يمكن تفسير دفاع المعارضة الأعمى عن بعض الجهاديين كجزء من أدوات التغيير، وبالتالي إشاحة نظرها عن انتهاكاتهم وتجاوزاتهم الطائفية والانتقامية بذريعة عدم تشتيت الانتباه عما يمارسه النظام، والأهم صمتها المريب والمزمن تجاه ما يتعرض له الناشطون المسلمين من فتك وتنكيل، أوضحه حالة رزان زيتونة ورفاقها!

والأكثري حين تدعم المعارضة وتناصر كل معركة عسكرية ضد النظام حتى لو ارتدت نتائجها مأساة على المدنيين، حتى لو اتخذت أبعاداً مذهبية تزيد في حدة التخندقات وتفكيك اللحمة الوطنية، ناهيك عن استهتارها بشدة ما يعنيه اللاجئون السوريون، اللهم سوى لإثارة عطف المجتمع الدولي وشحن موقفه ضد النظام، حتى لو تجمد هؤلاء في صقيع الشتاء وبقى أطفالهم مشردين بلا مأوى أو مدارس أو رعاية صحية.

رابعاً، دفع الحراك الإسلامي مفهوم المواطنـةـ لأحد أهم مبادئ حقوق الإنسان إلى الصدارة وهتف بالشعب السوري الواحد وبالمساواة بين البشر أمام القانون بغض النظر عن الدين والقومية، لكن اللجوء إلى السلاح وتصاعد العنف، وتزايد عمليات التمييز نتيجة الاستقطابات والاستفزازات الطائفية والمذهبية، فضلاً عن تقديم دعوات لتقسيم البلاد يحدوها خلق تجانس في المنبت والانتماء، أفضت إلى انحطاط حقوق الإنسان إلى ما دون قيم المواطنـةـ وصار الفرد وللأسف يعرف بانتسابه الديني أو المذهبي أو العشائري، ما عزز مفهوم الأقلية والأكثرية المناقض لمبدأ المساواة في الحقوق والواجبات، وشجع الأقليات الدينية والعرقية على التكorum حول ذاتها، والتمسك باشتراطات سياسية للحماية مما تعتقد عسف الأكثرية وظلمها.

خامساً، لا تغدو حقوق الإنسان في أسوأ حالاتها عندما تهتز ثقة السوريين بصدقية المجتمع الدولي الذي تخلّى عنهم في أشد محنة يتعرضون لها وعجز عن المبادرة لوقف العنف المفرط وحماية المدنيين؟! ولم لا تتوقع ازدرااء السوريين لمبادئ حقوق الإنسان بصفتها معياراً عالمياً مشتركاً، وهو يراقبون، من يدعى الدفاع عنها، كيف يتاجر بدمائهم وبمعاناتهم، وكيف تطغى لديه لعبة المصالح الأنانية والمطامع التافهة الضيقة على حساب القيم الإنسانية!.

أخيراً، ربما يجد البعض الحديث اليوم عن حقوق الإنسان أشبه بالترف أو صرخة يائسة في ظل سطوة السلاح وسيادة العنف وتفاقم الصراعات الأهلية الدموية في غير بلد طاولته رياح التغيير، لكن هل كنا لنصل إلى ما نحن فيه لو لا تغيير

حقوق الإنسان ودوره في حماية المجتمع ومحاصرة الاندفاعات العدوانية، ولنخيل للحظة مشهد الربيع العربي لو كان كل مواطن قادرًا على ممارسة حقوقه ويدرك دوره في الحفاظ على سلامة مجتمعه ومناهضة العنف والاستبداد، أو لو ترك للمنتفضين أن يذهبوا بانتفاضاتهم وثوراتهم نحو ما طمحوا إليه ليضعوا شعاراتهم عن الحرية والكرامة والمساواة موضع التنفيذ.

الحياة اللندنية

المصادر: